الباب الأول
الأسرة ووظائفها(*)

مقدمة الباب الأول
الفصل الأول: تعريف الأسرة
الفصل الثاني: أهداف الأسرة ووظائفها
الفصل الثالث: أشكال الأسرة

(*) نشر هذا الباب بفصوله الثلاثة في كتاب بعنوان «الأسرة: التعريف والوظائف والأشكال» سنة 2003 عن طريق دار القلم للنشر والتوزيع بالكويت

مقدمة الباب الأول

يستخدم العلماء والباحثون في علم النفس الأسري وعلم الاجتماع العائلي مصطلحين رئيسين : أحدهما الأسرة التقليدية والثاني الأسرة الحديثة . ويقصد بالأسرة التقليدية جماعة من رجل وامرأة بينهما علاقة زواج رسمية وأبنائهما وأقاربهما الذين يعيشون معهما في معيشة مشتركة، أما الأسرة الحديثة فيقصد بها جماعات مختلفة في الوظائف والأهداف والبناء منها : جماعة من رجل ورجل أو امرأة وامرأة وتسمي "أسرة الجنس الواحد" أو جماعة من مجموعة رجال ونساء في معيشة واحدة، بحيث يكون كل رجل زوجًا لكل النساء والمرأة زوجة لكل الرجال في الجماعة، وتسمي " أسرة الزواج الجماعي"، أو جماعة من رجل وامرأة ليس بينهما زواج رسمي، وتسمي "أسرة المعاشرة"، أو جماعة من رجل وامرأة بينهما زواج رسمي أو بدون زواج ويعيشان معًا، ولا يتحمل أي منهما مسئولية الأعمال المنزلية ولا رعاية الأطفال ولا الإنفاق على الأسرة، وتسمي "أسرة فندقية" حيث يأوي كل زوج إلى المبيت مع الزوج الآخر، وقضاء أوقات الفراغ والإجازات والعطلات الرسمية معه، يستمتع به ولا ينفق عليه ولا يرعاه . فكل منهما مسئول عن نفسه وليس عن الآخر (Ingoldsly,1995).

وقد أدي تعدد الأسر الحديثة واختلاف أشكالها إلى غموض مفهوم الأسرة ودلالاته، مما دعا كثيرًا من العلماء والباحثين إلى الاجتهاد في تعديل مصطلح الأسرة وتوسيع مفهومة ودلالاته ليشمل الأسرة التقليدية والأسرة الحديثة معًا . وقد شجعهم على ذلك المعني القاموسي لكلمة Family في اللغة الإنجليزية وغيرها من اللغات الأوربية التي تعني الألفة والعشرة والائتلاف والتعود والرفقة (Mancie,et al.2000) (بيري 1998 وموسوعة الأسرة ،2003) .

أما في اللغة العربية فإن كلمة الأسرة من الأَسْرِ أي القيد والرباط الذي لا ينطبق إلا على الأسرة التقليدية، التي تقوم على رباطَيْ الزواج والدم أو قيدي الزواج

والدم اللذين يشدان أفراد الأسرة ويعصبانهم بقوة في جماعة الأسرة التقليدية ولا ينطبق على الأسر الحديثة .

وهذا يعني أن الأسرة في اللغة العربية محددة المعني وتدل على جماعة لها خصائصها التي تميزها عن غيرها من الجماعات، ولا يصح استخدام كلمة أسرة للدلالة على أية جماعة أخرى إلا من قبيل المجاز أو الكناية أو التشبيه البليغ . فتقول "أسرة المدرسة" كناية عن أن المدرسة جماعة يسودها التماسك والترابط والمودة والمحبة وكأنها أسرة واحدة، لأن التماسك والمودة والمحبة من خصائص "جماعة الأسرة" .

ونخلص من هذا التحليل لمفهومي الأسرة: التقليدية والحديثة إلى أن شكوى بعض الباحثين من غموض مفهوم الأسرة وتعدد دلالاته خاص بالمجتمعات الغربية ولغتها وظروفها الاجتماعية والثقافية ولا تنسحب هذه الشكوى على مفهوم الأسرة في المجتمعات الإسلامية التي لا تعترف إلا بالأسرة التقليدية وترفض ما عداها من الأسر الحديثة .

ونتناول في هذا الباب تعريف الأسرة في اللغة العربية والشريعة الإسلامية والاصطلاح في علمي النفس والاجتماع العائلي، ثم نستخلص منه الخصائص المميزة لجماعة الأسرة، ونجعلها معايير نحتكم إليها في مناقشة بعض مفاهيم الأسرة الحديثة، التي دعا إليها المناهضون للأسرة التقليدية في القرن العشرين – لاسيما في النصف الأخير منه – في أوروبا وأمريكا، وأقاموا الحجج والأدلة على فشل الأسرة التقليدية، وأضرارها على الصحة النفسية والجسمية والاجتماعية للفرد والمجتمع، وزعموا أن أنظمتهم الأسرية الحديثة هي الأفضل والأحسن للحياة العصرية .

وقد دخل بعض علماء الاجتماع وعلم النفس الأسري العرب جُحْرَ الضَّبِّ وراء هؤلاء المناهضين للأسرة، وناقشوا في كتبهم فِكْر هذا الفريق حول تقلص وظائف الأسرة، والتمرد على تقسيم العمل في الأسرة، وتحرير المرأة من الظلم في الأعمال المنزلية والأمومة، والمساواة بين الجنسين في الأدوار الاجتماعية والحرية

الشخصية والمصلحة الفردية . وقدموا في مناقشاتهم أدلة وبراهين على منطقية هذا الفكر وارتباطه بالتنوير والتطوير في الحياة الأسرية . وهم - من وجهة نظرنا المتواضعة - يمهدون تمهيدًا مباشرًا أو غير مباشرٍ لزعزعة الأسرة بمفهومها التقليدي، ويزينون المفاهيم الأسرية الحديثة ؛ لتكون مقبولة أو على الأقل غير مستهجنة في المجتمعات الإسلامية .

ولا يختلف اثنان من علماء الاجتماع العائلي وعلم النفس الأسري من العرب وغير العرب، المسلمين وغير المسلمين على أن مفهوم الأسرة مفهوم محلي مرتبط بثقافة المجتمع وعاداته وتقاليده ومعتقداته، ويختلف في مدلوله - كثيرًا أو قليلًا - من مجتمع إلى آخر وقد نجد مفاهيم أسرية مقبولة في مجتمع وغير مقبولة في مجتمع آخر. لذا لا بأس أن تظهر مفاهيم أسرية مقبولة في المجتمعات الغربية وغير مقبولة في المجتمعات الإسلامية .

ومع قناعتنا أن مفهوم الأسرة المسلمة مفهوم سماوي أو مفهوم اجتماعي من عند الله، فقد حدد الله أهداف الأسرة ووظائفها والحقوق والواجبات فيها والعلاقات بين أفرادها، وهو مفهوم ثابت لا تعديل فيه ولا تطوير، وسوف يظل كما هو دون تحريف أو تعديل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ومع قناعتنا أيضًا أننا لسنا في حاجة إلى تعديل مفهوم الأسرة أو توسيعه أو تغييره بأنظمة أسرية حديثة بقدر حاجاتنا إلى فهم معني الأسرة في لغتنا وشريعتنا وتطبيقه كما يريد الله، حتى نرضيه سبحانه، وننعم بالسعادة في الدنيا والآخرة .

ومع قناعتنا بكل هذا فسوف نناقش بعض مفاهيم الأنظمة الأسرية الحديثة مناقشة موضوعية، ونحكم عليها من الناحيتين العلمية والعملية في ضوء خصائص الأسرة في اللغة العربية والشريعة الإسلامية، وفي ضوء مصلحة الفرد والجماعة في الحياة الدنيا والآخرة . وسوف نركز في مناقشتنا لهذه المفاهيم على الإجابة عن ثلاثة أسئلة هي :

1- هل حجج المناهضين للأسرة التقليدية قوية في الدلالة على عدم صلاحية هذه الأسرة للحياة العصرية الحديثة؟

2- هل تتفق مفاهيم الأنظمة الأسرية الحديثة التي يدعو إليها المناهضون للأسرة مع مفهوم الأسرة في اللغة العربية والشريعة الإسلامية ؟

3- هل حققت هذه الأنظمة ما فشلت فيه الأسرة التقليدية كما يزعم المناهضون لها ؟

وسوف نحاول تقديم الأدلة المنطقية والموضوعية على أن المفهوم التقليدي للأسرة هو المفهوم الدقيق والوحيد للأسرة، وما عداه من مفاهيم لا يدل على الحياة الأسرية لاسيما في المجتمعات الإسلامية .

ومع قناعتنا بأننا لسنا في حاجة إلى هذه الأدلة لكي نتمسك بمفهوم الأسرة التقليدية لأنه بمعناه ومدلوله جزء لا يتجزأ من عقيدتنا الإسلامية، التي لا نحيد عنها فـ "ليس للمؤمن ولا للمؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن تكون له الخيرة من أمره" ومع هذا نناقش فكر المناهضين للأسرة والأنظمة التي دعوا إليها مناقشة علمية، ونقدم الأدلة العقلية على صحة أو خطأ مزاعمهم تقديمًا يتفق مع منهجهم في التفكير دون تعصب أو تحيز، معتمدين في ذلك على قواعد إسلامية ثلاث في الحوار مع الآخر هي :

1- ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:29] فمفهوم الأسرة التقليدية مفهوم سماوي من عند الله ، ومن شاء يؤمن ويتمسك به، ومن شاء يرفضه ويتخلى عنه .

2- ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصِّلَت:34] فنقدم الأدلة على أهمية الأسرة التقليدية، وبطلان الأنظمة الأسرية الحديثة، ونلتزم بالموضوعية والعقلانية والحكمة والموعظة الحسنة في الحوار والمناقشة .

3- ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:6] فإذا استمر الخلاف حول مفهوم الأسرة فلنا أن نتمسك بالأسرة التقليدية ولهم أن يتمسكوا بالأنظمة الأسرية الحديثة، وسوف يعلمون من له عقبى الدار في الدنيا والآخرة .

ويتكون هذا الباب من ثلاثة فصول: يتناول الفصل الأول تعريف الأسرة في اللغة العربية والشريعة الإسلامية ، وفي الاصطلاح عند علماء النفس والاجتماع والخدمة الاجتماعية ، ويناقش الفصل الثاني أهداف الأسرة التقليدية ووظائفها النفسية والاجتماعية والروحية ، ويعرض الفصل الثالث أنماط الأسرة التقليدية: الممتدة والنواة وبناءها الاجتماعي.

* * *